الحياة الطيّبة
السنة ١٤
العدد ٢٣
خريف ٢٠١١ م
أبحاث ودراسات

دستور عمل الطغاة ومآلهم في القرآن الكريم
- قصّة فرعون نموذجاً -

د. مجدي أحمد حسين[1]

مدخل:

إنّ قصّة النبي موسى عليه السلام وفرعون هي قصّة دائمة في حياة البشر في الحياة الدنيا، لكنّه لم يلتفت كثيرون لهذا التركيز الكبير للقرآن الكريم على هذه القصة المبثوثة في طول القرآن الكريم وعرضه، في كثير من سوره وآياته.

كما أنّ القصّة لم تستدع السؤال عن سبب كلّ هذا الحجم من الاهتمام والعرض بصيغ مختلفة، وأحياناً دون إضافة جديد من آيات سابقة، والسبب في ذلك يرجع إلى الإلحاح والتركيز على بيان الصراع المحتدم بين الكفر والإيمان، وبين الحقّ والباطل. فدعوة النبي موسى عليه السلام لم تكن تستهدف الإطاحة بنظام الحكم وتنصيب نفسه ملكاً، بل استهدفت إدخال السلطان (فرعون) في دين الله في الحدّ الأقصى، أو التخلية بين الناس وما يعبدون في الحدّ الأدنى.

ولكن هيهات كيف يقبل المتكبّر - الذي لم يدخل الإيمان قلبه إلا لحظة غرقه، حيث لا ينفعه إيمانه في هذه اللحظة -، أن يسود الدين الجديد، بينما كان هو (فرعون) المرجعية العقدية والفكرية لشعبه؛ حتى أصبح يُعبَد من دون الله، وهو إن فترت همّته، فإنّ المحيطين به يحرّضونه خوفاً على وضعهم

(١) أستاذ جامعي، من مصر.

ومصالحهم[١]. قال –تعالى–: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

هذا وقد ورد اسم فرعون[٢] ـ وبالتالي قصّته ـ أكثر ممّا ورد عن كلّ الأنبياء عليهم السلام، عدا موسى عليه السلام المرتبط معه بقصّة واحدة. ولا يرد في ذهن مسلم أو في ذهن أيّ قارئ للقرآن، أنّ في هذا أيّ نوع من التكريم لفرعون، بل إنّ القرآن لم يوبّخ شخصاً أكثر من فرعون. غايته أنّ الله – سبحانه وتعالى – يريد أن يربّينا، ويعلّمنا، ويرشدنا إلى أنّ أصل الداء في المجتمع يكمن في طغيان السلطة السياسية، حيث يتجسّد حبّ الدنيا، والاقتتال عليها في صورة حبّ السلطة والطغيان والتسلّط على العباد، مع الاستئثار بالتمتّع بمتاع الحياة الدنيا وملذاتها إلى حدّ السفه والترف.

لقد وجّه الله –عزّ وجلّ– نبيّه موسى عليه السلام لهداية فرعون لدين الله، وردّه عن الفساد الذي عمّ في الأرض على يديه، حيث يرتبط الكفر بالفساد أيّما ارتباط؛ لاحظ قوله –تعالى–: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾[٣]، ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[٤]، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[٥].

وعندما استكبر فرعون على آيات ربّه هدّد موسى عليه السلام بالقتل وبالسجن؛ كما يفعل كلّ الطغاة من قبله ومن بعده حتى يوم الدين، يقول –تعالى–: ﴿وَقَالَ

(١) الأعراف، ١٢٧.

(٢) ورد اسم فرعون في القرآن الكريم ٧٤ مرّة؛ أي أكثر من ورود ذكر أسماء الأنبياء عليهم السلام والرسل عليهم السلام جميعاً، عدا موسى عليه السلام الذي ارتبط بالجهاد ضدّ فرعون!! فقد ورد اسم موسى عليه السلام ١٣٦ مرّة، أمّا أبو الأنبياء عليهم السلام سيدنا إبراهيم عليه السلام فقد ورد اسمه ٦٩ مرّة، يليه نوح عليه السلام ٤٣ مرّة، وعيسى عليه السلام ٣٣ مرّة، وشعيب عليه السلام ١١ مرّة، وهود عليه السلام ٧ مرّات، وبالمناسبة فإنّ سيدنا محمّد ﷺ ورد اسمه في القرآن ٥ مرّات(٤ مرّات محمّد، ومرّة واحدة أحمد)، وهذا في حدّ ذاته إعجاز خاصّ يفضح تخرّص المستشرقين؛ بادعائهم أنّ محمداً ﷺ قد كتب القرآن، فلماذا إذن لم يُحابِ نفسه، ويكتب اسمه على الأقلّ أكثر من أيّ نبي أو رسول، أو حتى أكثر من فرعون ذي الأوتاد.

(٣) النازعات، الآيات ١٧-١٩.

(٤) يونس، ٨٣.

(٥) القصص، ٤.

فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾[١]، ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾[٢].

وهذه هي المرّة الوحيدة التى ورد فيها ذكر السجن صراحة في القرآن خارج سورة يوسف عليه السلام.

معالم دستــور عمل الطغاة ومآلهم:

إنّ قصّة فرعون تحكي دستور الطغيان في كلّ زمان ومكان، ويتجلّى ذلك من خلال المحدِّدات التي تحكم أسلوب عمل الطغاة ومآلاتهم على مرّ التاريخ، ومن هذه المحدِّدات:

١) تكريس مبدأ عبادة الحاكم:

يقوم النظام الفرعوني على أساس تأليه الحاكم، غير أنّ عبادة الحاكم وتأليهه يمكن أن يأخذا أشكالاً متعدّدة، فربما لا يقول صراحة: أنا الله، ولكنّه يقولها عملياً، والبطانة التي حوله تقولها؛ فهو لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكلّ كلماته حكم، وهو لا يخطئ أبداً في شاردة أو واردة، وهو ملهَم، ومن المستحيل مراجعته: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[٣]، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[٤]، ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[٥]، ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٦]، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ

(١) غافر، ٢٦.
(٢) الشعراء، ٢٩.
(٣) غافر، ٢٩.
(٤) القصص، ٣٨.
(٥) النازعات، ٢٤.
(٦) الأعراف، الآيتان ١٢٣-١٢٤.

سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾[1].

كما أنّ الطغاة المعاصرين لا يموتون؛ بمعنى أنّهم لا يتصوّرون أنّهم سيموتون، ولا يرتّبون أحوالهم على ذلك الاحتمال المُستَبعَد، وكذلك، فإنّ التابعين لهم لا يضعون هذا الاحتمال في تصوّرهم، ويتعاملون مع الحاكم الإله، وكأنّه سيعيش أبداً؛ ولذلك عندما يموت هذا الحاكم تحدث حالة من الذهول بين الكبار والصغار على السواء، ويتساءلون: أحقّاً مات؟! وتفيد الأخبار في وفاة ستالين طاغية روسيا الشيوعية، الذي كرّس مسألة عبادة الحاكم، أنّه لم يُكتشف موته إلا بعد عدّة أيام؛ لأنّ الحرّاس والمسؤولين لم يكن مخوّلاً لهم الدخول عليه، دون أن يستدعيهم، ولمّا غاب عدّة أيام تجرّأوا في الدخول إلى جناحه بالقصر فوجدوه ميتاً!، ولعلّهم تساءلوا ساعتها أحقّاً يمكن أن يموت ستالين؟!. وقد رأينا كيف كرّست الشيوعية التقدّم في الطبّ؛ لإطالة عمر الرؤساء لأرقام مذهلة؛ حتى ظلّوا يحكمون وهم خشب مسنّدة، لكنّ إرادة الله كانت أكبر من ألاعيب الطبّ، فماتوا في النهاية!!. وكذلك تمتدّ ألوهيّة الحاكم وقدسيّته إلى أسرته؛ فتورَّث لهم.

فهذه الصور المعاصرة لتأليه الحاكم، المنتشرة في عالمينا العربي والإسلامي، وعالم الجنوب عموماً، تنطبق على الواقع الفرعوني الذي ذكره القرآن الكريم أيّما انطباق؛ فعندما آمن السحرة بموسى عليه السلام تحوّلت قضية إيمان السحرة بربّ موسى عليه السلام وهارون عليه السلام إلى قضية أمن دولة؛ لأن المقصود هو هزّ الاستقرار والسلام الاجتماعي في المدينة، وشقّ الوحدة الوطنية، ومحاولة منكرة لقلب نظام الحكم. وهذا هو مبلغ علم فرعون، وهذا هو منظور الطاغية المستبدّ لهذه الدعوة الجديدة: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[2].

(١) الأعراف، ١٢٧.
(٢) الأعراف، ١٢٣-١٢٤.

فلأنّ فرعون - كأيّ مستبدّ- لا يرى صواباً سوى نفسه وحكمه، فمن الطبيعي أن يرفض أيّة دعوة تحوّله إلى حاكم بشري ليست له أيّة قدسيّة، بل عبد من عباد الله، كغيره من البشر: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[١]، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[٢]، ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾[٣]؛ وذلك عبر وسائل الإعلام وخطبه المقدّسة والمسؤولين الأماجد، الذين يردّدون أقواله دون آيات القرآن الكريم.

وفرعون هذا يحتقر الرسول الكريم عليه السلام؛ لأنّه لا يملك مالاً ولا قوّة مادّية، فكيف يتسنّى له أن يتحدّاه!!: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾[٤].

٢) كسب رضا الناس مدعاة ترسيخ دعائم الحكم الطاغوتي:

إنّ النظم الاستبدادية الطاغوتية (أي التي لا تحكم بما أنزل الله) تستمرّ ويستتبّ لها الأمر برضا الناس أولاً قبل الجنود، وقبل هامان؛ الذي يرمز لمعاون الحاكم الطاغية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

وفي قصّة فرعون وموسى عليه السلام نجد آية حاسمة في هذا المعنى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[٥].

فالطاغية لا يستطيع أن يحكم بالاعتماد على القوّة المادّية للجنود وحدها، بل لا بدّ له من رضا جموع الناس، وتعاونهم مع الحاكم، فهو لن يستطيع أن يوفّر جندياً لكلّ مواطن، كذلك فإنّ انفضاض الناس سلبياً ثمّ إيجابياً عن الحاكم يؤدّي إلى عزله وسقوطه؛ فإذا استطاع أن يستخفّ بعقول قومه ويقنعهم بمواقفه والإطار الفكري والعقدي لنظامه، فإنّهم يطيعونه، وهم بذلك يصبحون شركاءه في الإثم والفسق.

(١) النازعات، ٢٤.
(٢) القصص، ٣٨.
(٣) غافر، ٢٩.
(٤) الزخرف، ٥٢.
(٥) الزخرف، ٥٤.

وتتنوّع الآيات المتعلّقة بقصّة موسى عليه السلام وفرعون لتوضيح هذه الحقيقة الأزلية، التي لا ترتبط بفرعون موسى عليه السلام إلا على سبيل المثال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾[1].

وإذا كانت هذه الآية تشير إلى الخاصّة وكبار القوم، فإنّ الآية الآتية عامّة في قوم فرعون: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾[2]، حيث جاءت في أعقاب الآية التي تصف هلاك فرعون وجنوده. والمعروف أنّ الجنود يكونون من عامّة الشعب: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾[3].

٣) خنق الدعوات المعارضة للحكم الطاغوتي:

إنّ محور الصراع كان بين الدعوة والسلطة الغاشمة، فقد أرسل الله -تعالى- موسى عليه السلام وهارون عليه السلام إلى فرعون ومَلَئِه؛ لأنّ السلطة كانت في يده، ولأنّ الحديث كان مع فرعون أولاً رغبة في إيمان من خلفه بإيمانه، لكن كان رأي فرعون ومن حوله من كبراء القوم (السلطة الحاكمة بالمعنى السياسي والاقتصادي المعاصر) أنّ موسى عليه السلام وهارون عليه السلام سينالان تأييداً شعبياً وزعامة دينية؛ لأنّ الدين غالب في نفوس الناس أجمعين، فيصبح ملك فرعون صورياً، بعد تصديق الناس برسالة موسى عليه السلام. فهم خوفاً على ملكهم وجبروتهم وتسلّطهم حاولوا منع أتباعهم من الإيمان؛ تمسّكا بالملك والجبروت، وكراهية لكلّ رسالة إصلاح ودعوة وإيمان: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾[4]؛ أي لن نصدّق برسالتكما؛ لأنّها ستسحب بساط الملك من تحت أقدامنا. وهكذا يتعلّل فرعون وملؤه بهذه التعليلات، فقد كان الملك والسلطان أهمّ عندهما من الهداية والإيمان. وماذا كانت المحصّلة إذا: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ

(١) هود، ٩٦-٩٧.
(٢) طه، ٧٩.
(٣) طه، ٧٨.
(٤) يونس، ٧٨.

وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[١]، فذرّيّة بمعنى جماعة، وإن تغلب عليها صفة الشباب، ومن الواضح أنّ الملأ (علية القوم) لم يكونوا عموماً من المؤمنين، بل عاندوا الحق. وما ورد في القرآن يشير إلى إيمان جمهرة السحرة، وهم أقرب إلى النخبة المثقّفة منهم إلى الحكّام، لكنّ القرآن الكريم أشار صراحة إلى إيمان قلّة من طبقة الحكّام، وهي قلّة ضئيلة رمز لها القرآن برجل مؤمن من آل فرعون، وبامرأة فرعون، التي كانت في الأصل هي الداعية لاحتضان موسى عليه السلام وتربيته طفلاً: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾[٢].

ولنلحظ هنا مسألة كتمان الإيمان، وهي مسألة شائعة في الطبقات الطاغوتية؛ لأنّ إعلان الإيمان يعني التصفية الجسدية ولا أقلّ. فهي الخيانة العظمى للنظام الطاغوتي.

ثمّ عادت الآيات تشير إلى الرجل نفسه دون أن تسمّيه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[٣]، وقد يكون هو الشخص الوحيد، أو يرمز ذلك لأقلية بالغة الضآلة. ونحن نرجّح المعنى الأخير؛ لأنّ القرآن الكريم أشار إلى شخص ثانٍ على الأقلّ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٤].

وفي المقابل لا يدخل جميع المستضعفين معسكر الإيمان، وليس المقصود بذلك جنود فرعون، بل كلّ جمهرة الناس، التي أطاعت فرعون واستجابت له، وهؤلاء مصيرهم في الدنيا والآخرة كمصير فرعون وملئه.

وكما ذكرنا فقد كان الحدّ الأقصى لدعوة موسى عليه السلام إدخال فرعون وملئه في دين الله -تعالى-، فلمّا لم يتحقّق ذلك اتّجه إلى تعميق الدين في قلوب المؤمنين، وإحاطتهم بسياج إيماني عقدي؛ حتى لا يذوبوا في محيط مجتمع

(١) يونس، ٨٣.
(٢) غافر، ٢٨.
(٣) غافر، ٣٨.
(٤) التحريم، ١١.

فرعون: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[١].

لكنّه كان مدركاً، رغم هذا التوجيه الإلهي له، أنّ فتنة السلطة الطاغوتية على المؤمنين رهيبة، فدعا الله -تعالى- دعوة شبيهة بدعوة نوح عليه السلام: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾[٢]؛ وفي ذلك إشارة صريحة إلى ارتباط السلطة الغاشمة بالكفر.

٤) سنّة سقوط الطغاة بفعل المقاومة والصمود:

قال -تعالى-: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾[٣].

فبعد إغراق فرعون وجنوده في اليمّ، شاء الله أن تطفو جثّته على السطح ويراها بنو إسرائيل بأنفسهم؛ ليتأكّدوا من هلاكه، وليتأكّد الناس أنّه لا يمكن أن يكون إلهاً، وأنّ هذه الميتة البشعة على مرأى الناس عقاب على ادّعاء الألوهية.

ولقائل أن يقول: أي عبرة في ذلك وقد انتهت هذه المعجزات.

فنقول العبرة في هذه النهاية البشعة للطغاة - وقد رأينا عشرات، بل مئات الأمثلة عبر التاريخ -، تفيد أنّ نهاية الطغاة ستكون بأيدي المؤمنين وبتوفيق الله. وسنجد في قصّة موسى عليه السلام وفرعون كثيراً من الدروس في كيفية مقاومة طغيان المفسدين؛ بفعل الأخذ بالأسباب والمسبَّبات الإلهيّة. ولقد أشرنا للتو إلى مسألة تعميق الإيمان في بيوت المؤمنين، وكذلك نشير إلى مواجهة الطغيان بالدعوة باللسان والعمل الصالح مهما كان ردّ الفعل الاستبدادي، فرأينا أنّ إيمان السحرة لم يهتزّ عندما هدّدهم فرعون بالإعدام، وتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، فردّوا قائلين: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾[٤].

---

(١) يونس، ٨٧.
(٢) يونس، ٨٨.
(٣) يونس، ٩٢.
(٤) طه، ٧٢.

وقد يحاول البعض أن يشوّه رسالة موسى عليه السلام، أو يحرف الكلم عن مواضعه؛ حين يشير إلى الآية الكريمة: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[1]؛ وذلك بخلط القول اللين بالنفاق والكذب. والحقيقة أنّ المقصود بالقول اللين عدم التهجّم على شخص الحاكم، وعدم استفزازه بصورة شخصية، وإعطاؤه واجب الاحترام الذى يليق بمركزه. أمّا في جوهر الموقف فلا مساومات، ولا تزويق للكلام، ولا تمييع: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾[2].

فعندما احتدم الصراع والنقاش كان موسى عليه السلام صريحاً وحاسماً؛ فبعد انتصار موسى عليه السلام على السحرة قال له فرعون: ﴿.... إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾[3]، فلم يجفل موسى عليه السلام، ولم يحاول أن يبحث عن كلمة دبلوماسية، فكان ردّه: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾[4]؛ أي هالكاً.

ليست هذه كلّ الدروس المستفادة من قصّة فرعون وموسى عليه السلام، لأنّنا نركز على نقطة واحدة؛ هي هذا التلازم الشديد بين الدعوة والسلطة السياسية، سلباً أو إيجاباً؛ فالدعوة إلى الله تعالى لا يمكن أن تصل إلى ذروتها وغايتها إلا إذا دخلت في صميم بنيان العمران البشريّ، ولا يتأتّى ذلك إلا من خلال السلطة السياسية، وهذا ما سمّاه القرآن الكريم التمكين لدين الله في الأرض: يقول –تعالى–: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾[5]، ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[6].

(١) طه، ٤٤.
(٢) النازعات، ١٧-١٩.
(٣) الإسراء، ١٠١.
(٤) الإسراء، ١٠٢.
(٥) القصص، ٦.
(٦) الأنبياء، ١٠٥.